سماء واحدة

كان يقف على جانب الشارع، فوق كومة من الحصى ما بين الإسفلت والجانب الصخري للجبل. متجمدا في مكانه، شاخصا مثل دمية شمعية تومض عينها السوداء في مواجهتي.

لفت نظري وقوفه الرصين مثل حصان مصغر على رقعة شطرنج. انحنيت ورفعته بين يديّ، فبان مثل حفنة رمل متفحم، وظهرت عينه الأخرى المغلقة. كان الجفن قد تورم، وغطاها. بدت بين العينين ندبة حمراء أبرزت جلده منزوع الشعر تحتها.

أوحت إصابته وكأن أحد الجوارح نقره بين عينيه دون أن يفلح في قتله. تكهن واحد من جماعتنا بأن سيارة مارة صدمت الطائر الطائش دون أن يستطيع تجنبها، فالعصافير لا تدرك ماهية الأذى الذي يطالها من المركبات المتحركة. وعلق آخر قائلا: إنه لا بد أن طائرا جارحا هاجمه كي يسبب له أذى بالغاً.

لم أتردد لحظة واحدة.

حملته توّاً، ولففته بالشال الحريري الأبيض الذي ما زال محتفظا برسم ذي لون أزرق على شكل المشبك التقليدي الذي يربط قماش «السفساري» التونسي. حمدت الله لأن تقلب أجواء الربيع دفعني لاختياره كي ألف به عنقي، وهكذا يمكنني استخدامه لرفع الطائر المصاب عن التراب دون إثارة ذعره.

ضممت الطائر الصغير إلي، واستأنفت المشي باتجاه الأرض المعشبة التي تبرز فوقها قطعة السماء

الزرقاء .

حضنته قريبا من قلبي ، بوهم أن تبث دقاته بعض الحرارة في الجسم الصغير المنهك . بدا لي أن رهافة الطائر تجاه الضربات العشوائية تتناقض مع قوة جناحيه التي تحمله فوق قوانين الجاذبية الأرضية .

كم هو أقوى منا ، وأكثر هشاشة بما لا يقاس !

كنا نمضي باتجاه منحدر قريب ، وفوقنا تطل سماء ربيعية طازجة لم نعرف مثيلاً لسطوعها منذ أيام الشتاء الباردة .

نمضي بخطى حثيثة مخلفين وراءنا رفعا مؤقتا لمنع التجول بعد شهر ونصف الشهر من الاحتباس بين الدبابات والمصفحات التي اجتاحت المدينة . تستمتع قيعان أقدامنا بملمس الأرض الصلبة رغم الحصى الكثيرة المتناثرة فوقها . وترتخي ملامح وجوهنا التي تصلبت من الإصغاء القهري لثرثرة مقدمي البرامج السياسية في محطات التلفزة الفضائية الذين يناقشون أوضاعنا بطريقة لا تختلف عن برامج التسلية .

ننفض عن حواسنا أصوات مكبرات الصوت المثبتة على سيارات «الجيب» الإسرائيلية وهي تتكاثر حولنا مثل فيروسات خطرة أثناء تلاوة أوامرها علينا . ونخطو بكل عزمنا هرباً ولو لحين ، من روائح قنابل الغاز السامة ، وقاذورات النفايات التي لا تكف عن التراكم بسبب منع التجول .

محاولين الهرب ولو للحظة من بيوتنا التي أمست سجوناً . باذلين أقصى طاقاتنا عبر خطواتنا الموقعة باتجاه الخلاء كي نتناسى كم النداءات المتواصلة التي ترددت حولنا خلال ساعات الليل أو النهار ، محاولين وسعنا ، ورغم كل شيء ، بأن لا ننفض من نفوسنا أحلامنا الأولى بحياة مختلفة .

كأن نزهتنا تلك ، لم تكن إلا قطيعة مع كل ما يلقن لنا ويفرض علينا ارتداؤه من تعليمات وأوامر تشبه أقفاصاً من الزرد المعدني .

وربما فقط . . كي نطل من بين قضبان حبسنا السميكة ، بين منع وآخر ، على قطعة زرقاء أخرى من سماء فلسطين ! .

سماء تظلل أراضي جبلية تحوطها « سناسل » الحجارة القديمة التي منعت التربة من التفتت والانهيار منذ عصور الفنيقيين والرومان . وفضاء فسيح تمتد على تلاله المناطير الحجرية بأشكالها المشابهة لقلاع قزمة . قدت أحجارها الخشنة لكي تكون بيوتا لحفظ الغلال ونوم المزارعين منذ أزمان لا تتذكرها الأجيال المتعاقبة .

تحت ظلال السحب التي لا تنفك عن الجولان فوق القمم المتكررة إلى ما لا نهاية، تبرز بين الحين والآخر تحصينات لمواقع عسكرية إسرائيلية محاطة بالأسلاك الشائكة، أعدت كي تأخذ دورها القادم في التحول إلى مستوطنات استعمارية فوق أرضنا الزراعية.

من ناحية الغرب تشتبك هذه النقاط الإحتلالية المحاطة بالكشافات والأسلاك الشائكة، مع طبيعة مغايرة مشبعة بالجلال الذي تبثه هضاب تتدرج عليها مجاميع لانهائية من أشجار الزيتون. تتجانس بدورها مع القمم الانسيابية وصولاً إلى البحر البعيد. ترتسم فوق مياهه اللماعة سماء أخرى تلمس برقة ذلك الشفق المتلون بالنحاسي الأحمر ساعة المساء.

بحر لا نرى سوى التماع ظلاله من بعيد، لأنه يظل كامناً باتجاه الشاطئ الذي يحرم علينا الوصول إليه. إلا أننا لا نتعب من أن نشخص باتجاهه في كل وقت متاح، جاعلين التمشي حجة للحنين. متذرعين بالتفتيش عن أزهار البرية التي يحملها هذا الوقت من العام. شقائق النعمان القرمزية، وقرن الغزال المائل للوردي الليلكي، أو القندول الأصفر، ونبحث عن أشكال متنوعة من الزنابق الصغيرة ذات اللمعان الوردي المتموج. تنطلق صوب يناعتها أنظارنا المشدودة مثل بتلات مغلقة، كأننا نرسم من جديد حرية الانطلاق من حدود الإغلاق المفروض علينا.

أكملنا دورتنا، والطائر الصغير مغلق العينين ملفوف الجسم بالشال على صدري، واصطحبناه معنا.

في الدار، أسميته « أبو الحن» بناء على تأكيدات من جارنا المغرم بأنواع الطيور.

عندما تهيأ لي أن أبدي شكي في الاسم لعدم اكتمال طوق اللون الأحمر على ريش رقبته، أخبرني:

- هذا عصفور طفل، لم يحن أوان ظهور الأحمر الكامل على ريشه.

في المنزل، وضعته تحت مصفاة من السلك المعدني، وتركت له بعض الماء والحبوب.

مضى اليوم الأول وهو جامد لا يتحرك.

كان واقفا دون حراك، فكأن صمغاً قد ثبته في مكانه. لم يكن يبدو بوضوح من بين خروم السلك المعدني الدقيق، إذ أن ألوانه الغامقة كانت تتماهى مع المعدن. كان ثابتا لا يريم. تذكرت يوم تجمد عصفور الكناري في بيتي، عندما أوقعت قفصه عن حافة النافذة بدون قصد أثناء خروجي. أصيب

آنذاك بصدمة جعلته يقف متجمداً في مكانه ليومين دون أن يأكل أو يشرب .

هكذا قدرت أن «أبو الحن» سوف يتحسن بعد يوم أو يومين .

وتراءى لي آنذاك أن للعصافير مهما صغرت حجومها تعابير ، وأنه يمكننا أن نفهم ما تحسه من شكلها ، فالحركة هي عنوان سعادتها .

وضعت له بعض الحبوب والماء . وفي الليل أحسست بالرضى ، لأنه كان في مكان آمن .

لم يتحرك أيضا في اليوم الثاني ، لكن حبوباً قليلة كانت قد نقصت من الحفنة التي وضعتها بداخل الصحن .

كان علي الانتظار والإصغاء لمكبرات الصوت الإسرائيلية التي تلف مع عربات «الجيب» لثلاثة أيام أخرى حتى يعلن عن موعد رفع التجول . وخلال ذلك الوقت لم يتحرك «أبو الحن» ولم يصدر عنه أي صوت . لم يكن هناك ما يؤكد تحسنه غير عينه المغلقة التي بدأت تنفتح رويدا رويدا وإن تبقت أصغر من عينه السليمة الأولى .

استشرت جارنا مربي العصافير في أمر الاحتفاظ به أو إطلاقه ، فأكد لي أنه عصفور بري لن يحتمل الأسر لو عاش في قفص داخل بيت . وأنه من الأفضل حتماً إرجاعه إلى البرية في أقرب وقت ممكن قبل أن يصاب باكتئاب يصد نفسه عن الطعام والشراب .

تقلبت طويلا على فراش مد مثل كل ليلة في موضع مرتجل خوفا من قصف الاشتباكات أثناء النوم . كافحت دون نجاح تلك اليقظة الباكرة التي تمرمر نهاري بما هو أشبه بعقاب السجون . فمهما أحكم إغلاق النوافذ فإن أصداء المكبرات تخترق الجدران موصلة إلينا صوت الضابط الإسرائيلي بعربيته الركيكة المشبعة بالأخطاء اللغوية وهو يأمرنا بالجلوس في البيت لهذا النهار ، أو يحدد لنا ساعة العودة إليه في حالة رفع المنع ساعات قليلة .

كان صباحاً بشعاً لم يخفف من إزعاجه إلا نهوضي على فكرة سارة هي إعادة «أبي الحن» إلى موطنه الأول . إلى تلك البقعة التي مشينا فيها ذلك النهار المضيء .

لم يكن لديّ الوقت الكثير ، لأن وقت رفع المنع قريب ، وعليّ إعادته إلى مكانه الأول ثم الذهاب للوقوف في طابور طويل داخل الفرن ، والتفتيش بعدها في المحلات القليلة عن بعض الخضراوات .

ذهبت وصديقتي في سيارة إلى طرف المدينة الغربي ، وبيدي الغربال الذي يجلل الصحن الذي يقف

«أبو الحن» داخله.

لم يكن المكان جميلا كما رأيناه في المرة الماضية. كان هناك مشروع سكني يحتل أطرافه محولاً إياه إلى بؤرة تتكاثر فيها الشقق حديثة البناء، وقد اصطفت بعشوائية كيفما اتفق، وأمامها مخلفات الحديد وأكوام التربة ومواد البناء.

فتشنا عن شجرة قرب مكان عثورنا عليه، فلم تنجح مساعينا إلا في ايجاد شجرة صنوبر صغيرة تبقت صدفة بعيدا عن مواقع جرف مساحات البناء. مشينا فوق الصخور الصغيرة، وأشواك النتش، وبيوت العليق البري التي تعلق أشواكها بأطراف الثياب. حتى وصلنا إلى تلك الشجرة التي تكاد تقع في أعلى بقعة وسط المرتفع.

لم تبد الشجرة كمأوى آمن، إلا انه لم يكن من بديل عنها سوى الأشواك الخفيضة المشتبكة بالصخور.

لا بد أن «أبا الحن» سيعرف كيف يتدبر أمره، لأن عدة أيام في البيت لن تكفي لتبديد غريزته البرية.

اقتربت من الشجرة ووضعته على أحد غصونها القصيرة. ولشدة دهشتي سقط على الأرض ولم يتشبث بالغصن.

ركضت وراءه، وأمسكته من جديد، ووضعته على غصن الشجرة.

بدا وكأن هناك عطلاً ما في علاقته بالمكان، لأنه كان يهبط عن الشجرة توّاً.

ربما كان ما زال يشكو الدوخة وفقدان التوازن!

ومع هذا فلم يكن هنالك بديل آخر.

هكذا ركضت وراءه عندما طار على ارتفاع منخفض، ساقطا لتوه بعدها قرب صخرة ملساء، وأمسكته من جديد لكي أعاود وضعه على غصن الشجرة.

تمالك هذه المرة نفسه قليلا، لكنه ما لبث أن بدأ في فقدان توازنه وهوى مرة أخرى.

لم يكن هنالك مجال للتراجع، وكان الوقت ينقضي وعليّ مع صديقتي العودة قبل أن يصبح التأخر خطرا. كان يثبت تحسنا طفيفا في حفظ توازنه محاولا الطيران في كل مرة جديدة.

لن أستطيع إعادته معي، وعليه أن يجد طريقه ويتأقلم قبل أن تجهز عليه القطط في الحي السكني المجاور.

في المرة السابعة، طار عدة أمتار أفقياً ثم هوى.

وفي الثامنة..

وبعد أكثر من عشر مرات، طار.

طار.

ليس عاليا بما فيه الكفاية، وإنما بما يكفي لابتعاده عن المكان في اتجاه آخر.

طار! واختفى!

ولم أعد إلى أراه منذ ذلك الحين.

لم يكن قد مر وقت طويل على غيابه لأنه في نهاية ذلك الربيع، كنا نتمشى من جديد في تلك الجهة حينما انتبهت إلى ما كنت أراه دوماً قبلها ولا أدخله في نطاق حقلي البصري.

كان أحد الجوارح يحلق على ارتفاع عال يشبه الطائرة العمودية. محدقاً، مفتشاً عن فريسة ما قد تكون عصفوراً صغيرا مثل «أبي الحن».

بعدها بدأت أنتبه إلى أن ذلك الجارح كان يقضي نهاراته محلقا دوما هناك فوق الهضبة العالية، تماماً فوق تلك الشجرة الصغيرة.

هضبة عالية تحت سماء زرقاء تشرف على تلال وأشجار زيتون عتيقة، وجبال تطل على بحر خلاب، تغزوها مستوطنات استعمارية زاحفة من تواريخ الحروب القديمة. كروم ما زالت تحوي بقايا " مناطير " المزارعين من عصور سحيقة، ومدن على ساحل البحر تهجّر أهلها منها، وامتلكها آخرون بعد حروب لم تتوقف منذ عشرات السنين.

كل ذلك تحت سماء واحدة!

ألهذا طار «أبو الحن» بعيداً ولم أعد أراه منذ ذلك الحين؟

ليانه بدر/ رام الله